الثلاثـــــــاء 11-01-2011

1229-الأساس: الكتاب الأول: الافتراضات الأساسية (27)

الصحة النفسية (20)

ماهية الحرية، والصحة النفسية (5)

الحرية والإبداع والقهر الداخلى

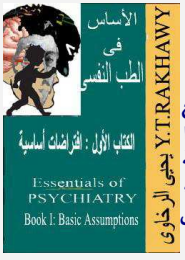

أثناء إعدادى التجربة النهائية للطبع لكتاب "فى شرف صحبة نجيب محفوظ" انتبهت إلى هذا المقطع من الحديث الذى أجرته المخرجة الفرنسية مع نجيب محفوظ فى بيت توفيق صالح، أثناء تسجيلها لجلسة الحرافيش التى سوف تنشر فى الموقع بعد أربعة أسابيع تقريبا.

المخرجة : ماذا عن الحرية، وما هو موقفك منها؟

نجيب محفوظ: موقفى؟!!!!! الحرية هى المفتاح الذى تهتدى به إلى الإنسانية الحقيقية، هى الأساس فى التفكير لمعرفة أى جديد أو أى حسن، لا يمكن أن يحصل أى تقدم فى العلم أو الفن أو العلاقات من غير حرية، مجرد وضع قيد عليك خلصت المسألة، هى جوهر الإنسان، الإنسان مخلوق ليحقق حريته

المخرجة: هل هناك وضع خاص للكاتب بالنسبة للحرية ؟

نجيب محفوظ : بالنسبة للكاتب هى حياته

المخرجة : إلى أى مدى يمكن أن يصل دفاعك عن الحرية ؟

نجيب محفوظ: مدى ؟؟!! (ضحك) إلى المدى الذى يجعل ما حدث يحدث (وأشار إلى رقبته حيث أثر جرح طعنة محاولة الاغتيال)، (**الخميس 8/6/1995**)

****

ثم إنى رحت أبحث عن الحرية فى حاسوبى فوجدت موضوعا كاملا نشر فى مجلة **"وجهات نظر"**، شديد الصلة لما نحن بصدده، فقلت أهديه لضيوف الموقع إذ غالبا لم يقرأها أحد منهم، لعله يفيدنا فى تقليبنا لموضوعنا الممتد عن الحرية والإبداع والصحة النفسية، ومن ثم الجنون.

المقال:

مجلة "وجهات نظر": نوفمبر 1993

الطارئ الإشكالى الذى لحق بالإنسان الإنسان: هو أنه أصبح واعيا بذاته بشكل سمح له بأن يميز بين ما هو "ذات"، وما هو "لا- ذات". مع بزوغ الوعى بالذات (بتميز عمل النصفين الكرويين(1) أصبح الكائن البشرى يمارس حياته فارقا بين ما هو"أنا" وما هو ليس "أنا"، ثم ينقسم الـ "ماليس أنا" إلى "موضوع بشرى" (نسميه "الآخر" عادة)، ثم "الطبيعة" بامتداداتها التصعيدية المفتوحة.

هذه النقلة الرائعة هى فى نفس الوقت محنة أصيلة، ذلك أنها قد هيأت لهذا الكائن الجديد مساحة غير مسبوقة من الحركة المتنوعة التى عرفت فى ظاهر السلوك باسم "الحرية". من فرط فرحته بها، وأيضا من فرط عماه عن حدودها وخداعها، راح يتغنى بما تصور أنها تعنيه حتى قدّسها، وإذ تقدست أصبحت صنما فى ذاتها لذاتها، فحرمَ نفسه من حقيقة حركيتها، وتنويعات جدلها.

الحرية الحقيقية لا تتفق مع التقديس، حتى تقديس ذاتها، وإن كانت لا تنفى توليد مقدسات مرحلية لمسيرة الجدل، شريطة أن تكون قابلة للتطور، مفتوحة النهاية.

هذا الوهم الجميل المسمى "الحرية"، أوقع الإنسان فى عدد من المضاعفات، بقدر ما أعطاه قدراً متزايداً من الفرص للتطور المسئول، الخطر فى آن.

بالَغَ إنسان العصر الحديث بوجه خاص فى تقييم معنى وقدرات هذه النقلة النوعية حين أصبح هو الكائن الحى الواعى الذى "يستطيع"، أو الذى "يتصور أنه يستطيع". هو فعلا "يستطيع" بشكل ما. أليس هو الكائن الوحيد - فى حدود ما نعرف- الذى أصبح قادرا أن يقرر لنفسه بنفسه مسارا وتوجها واختيارا، بحيث أصبح عاملا فاعلا فى تحديد كثير من تفاصيل سلوكه، بما يمتد إلى مصير نوعه؟

تجلى الانخداع بهذه النقلة النوعية (اكتساب الوعى بالذات، فى مواجهة ما ليس ذاتا، واحتمال المشاركة فى تقرير المصير/الحرية) فى مجالات عدةّ وبآليات متطورة قادرة. إلا أن تلك الآليات، على حداثتها، قد تمادت فى غرورها حتى كادت تنحرف بمسار التطور إلى الهلاك. أهم تلك الآليات هو ما سمى "العقل" (وهو ليس إلا جزءاً حديثاً من تاريخنا الرائع) حيث راح يختزل التاريخ الحيوى بكل زخم عطائه وفخر نجاحاته إلى ما يدخل فى اختصاصه تحديدا (اختصاص العقل كما صنفوه)، كما راح هذا العقل نفسه يختزل الغريزة الإيمانية (الحنين الفطرى إلى العودة إلى رحم الكون الأعظم) إلى ما هو دين، وأيضا كاد يختزل زخم الحرية وهيراركية الوعى وتفريعاته إلى ما يسمى "الديمقراطية". وهكذا أصبحت المعارف حكرا على ما يقره العقل، كما أصبح تفسير الأديان بالعقل بديلا عن حركية الإيمان إبداعا.

وبـعـد

هذه المقدمة التى طالت بدت لى ضرورية من حيث المبدأ لعلها تذكرنا أننا لكى نتعرف على مفهوم أعمق للحرية، علينا أن نغامر بمراجعة ما يسمى ديمقراطية (بما فى ذلك تفريعاتها الفرعية، وتداخلها مع حقوق الإنسان، وخاصة حق التعبير)، و أن ننتبه إلى آليات تزييف الوعى بما يقال له الإعلام (المختلط بالإعلان) ، وإلى استغلال التعليم (وبعض العلم)، لتشكيل الوعى البشرى بما ليس هو(2)، وأخيرا وليس آخرا إلى ما أدى إليه اختزال السلطة الدينية للغريزة الإيمانية وحبسها فى تفسير جامد. لكن كل ذلك يحتاج لتفصيل آخر، فنكتفى الآن بما يخص الإبداع.

الـفـرض

الفرض فى هذ المداخلة هو لتحديد وضع الحرية بما هى (لا بما شاع عنها، ولا بما اختزلت إليه)، فى علاقتها بالإبداع على مستويين: العملية الإبداعية، والناتج الإبداعى.

الحرية فيما يتعلق بحركية الإبداع لا تبدأ بحرية التعبير، ولا تنتهى بحرية النشر فالنقد. صحيح أن كلا من حرية التعبير وحرية النشر هى إعلان جيد عن حجم المساحة التى تتجول فيها حركية الإبداع لمجموعة من البشر فى وقت بذاته فى موقع بذاته، لكن لاينبغى أن نقبل هذا الاختزال بشكل يعمينا فى النهاية عن أساسيات أعمق وألزم وأخطر فيما يخص العلمية الإبداعية ذاتها.

لا إبداع بلا حرية حقيقية. ولا حرية بغير حركية مرنة مغامرة، ولا حركية مرنة مغامرة بغير جدل غامض، ولا جدل إلا فى حضور عدد من المتناقضات المتضفرة فى رحاب وعى خلاق ، يتخلق مع "آخر" يمارس نفس العملية من زاويته بطريقته، وهكذا...

إن المجال الجوهرى الذى يمكن أن تُختبر فيه، وأيضا تتحقق فيه، بعض حرية الكائن البشرى بما تميز به من وعى وإرادة، هو مجال الإبداع.

إبـداع الـطـبـيـعـة، وإبـداع الإنـسـان

الكائنات قبل البشر حققت إبداعها على مسار التطور بطفرات تنسلخ بها من كائن إلى آخر. واقع الأمر أن قوانين الطبيعة هى التى حققت هذا الإبداع الرائع وليس الكائنات. لم يحل الكائن الأرقى محل كل الكائنات التى طفر منها وانسلخ عنها. الكائنات الحالية التى تزعم نظريات التطور أننا (نحن البشر) نمثل الصورة الأرقى منها ما زالت باقية حولنا. هذا دليل أن الطبيعة قد فشلت فى أن تبدع من هذا الذى مازال حولنا ما هو بشر (نحن). إن نجاح إبداع الطبيعة لما هو إنسان قد تم بشكل انتقائى لبعض هؤلاء الجدود دون غيرها (تذكر أن البكتريا، والقرد، والغوريلا ما زالوا

يعيشون معنا كأبناء عمومة. ليسو هم تماما نفس الأجداد الذين أبدعتنا الطبيعة منهم).

هكذا أبدعت الطبيعة - بفضل الحق سبحانه وتعالي- ما هو نحن، دون حاجة إلى غرور الإرادة وأوهام الحرية.

الكائن البشرى هو الكائن الوحيد - فيما نعرف - الذى أمكنه، أو يمكنه، أن يمارس إبداعه ذاته، بما يشير إلى إمكانية إبداعه لما يعد به، يفعل ذلك من خلال تلك النقلة النوعية التى أكسبته الوعى والإرادة اللذان سمحا له باستعمال العقل ومنتجاته، ليمارس - فيما يمارس - ما أسماه الحرية : وقود الإبداع البشرى وشرطه. من هذا المنطلق تصبح مسألة الحرية وعلاقتها بالإبداع إشكالة تطورية بشرية غير مسبوقة عند الأحياء قبل الإنسان.

ليس معنى أن الإنسان قد اكتسب الوعى والإرادة أن تطوره الذاتي، أو النوعى أصبح مستقلا عن آليات التطور الطبيعية التى أفرزته. إن هاتين الميزتين تجعل الإنسان - شخصيا أكثر من المحيط والظروف - متضامنا فى المسئولية عن الطفرات التالية: إما تطورا وإما نقراضا.

الإبداع عند الإنسان تجاوز هذه الخطوة التطورية التى لا تعلن وجودها إلا بحدوث الطفرة فعلا. اكتشف الكائن البشري، بوعيه البصيرى المتميز، أن كثيرا مما يحفز تطوره، ويرسم خطى ارتقائه لا يمكن تحقيقه بمجرد أن يصل إلى وعيه مهما كان واضحا ومؤكدا. لا يكفى أن يلم الوعى البشرى بما "يجري"، وما "يهدد"، ثم ما "يمكن"، فيقرر الأفضل والأنجح، أو يختارهما، تحقيق الطفرة القادمة لا يتناسب مع الرؤية مهما صدقت أو اخترقت. من هنا ظهرت الوظيفة الرائعة لضرورة تسجيل ناتج الإبداع إذ تـُمَـكـّن هذه الوظيفة التنبؤية من تسجيل الواعد، بقدر ما تُمكّن من الإنذار بالمخاطر الممكنة.

بألفاظ أخرى نقول: إن الناتج الإبداعى هو بمثابة إعلان عن عجز تحقيق المراد الارتقائي"الآن"، وفى نفس الوقت هو تخطيط يحفظ للجنس البشرى حقوق التأجيل حتى تتاح فرصة التنفيذ، ثم إنه تحذير لما قد يهدد النوع بالانقراض، حالا أو مستقبلا.

كل ذلك يؤدى بنا إلى مشروعية التفرقة بين العملية الإبداعية التى تجرى عبرالتاريخ وحتى الآن، والناتج الإبداعى الذى اختص به الكائن البشرى (فى حدود ما نعرف)، لكنه يلزمنا أيضا بالربط بينهما ربطا حيويا متكاملا.

إن التكامل بين العملية الإبداعية البشرية مع ناتجها هو الذى نقل احتكار الطبيعة للإبداع إلى احتمال مشاركة الإنسان فى تسيير وتوجيه التطور، بما يشمل تحمله مسئولية ما يترتب على ذلك.

مرة أخري: الإبداع البشرى هو عملية تطورية أصلا، وما الناتج الإبداعى إلا إعلان عن عجز مرحلى عن تحقيق بعض رؤى هذه العملية "حالا"، فكأنما يقوم هذا الناتج بالاحتفاظ بـــ "حق التطور" كما سجله فى الوقت المناسب.

يبدو الحديث عن الحرية فيما يتعلق بالناتج الإبداعى دون الاهتمام بالحديث عن الحرية فيما يتعلق بالعملية الإبداعية نوعا من الاختزال والتسطيح، إذ يؤدى إلى الانشغال بقضايا فرعية، ليست ثانوية، عن الأساس والجوهر.

شروط وفاعليات العملية الإبداعية، وناتجها:

الإبداع البشرى كما نعرفه ونمارسه أصبح محنة الإنسان وشرف تمتعه بالوعى فى آن، وهو فى نفس الوقت اختبار لأحقية الإنسان فى المشاركة فى مسار تطوره.

الشروط الواجب توافرها لحرية حركية العملية الإبداعية غير الشروط اللازمة لإمكان الإعلان عن ناتج العملية وتسويقه، لكن العلاقة بينهما وثيقة دالة.

حتى تتحقق العميلة الإبداعية فى رحاب الوعى والإرادة، ثمة شروط وفاعليات لا بد من تحققها بدرجة مناسبة، نورد أهمها كما يلي:

1- مساحة كافية لاستيعاب حركية الوعي.

2- تنشيط لأكثر من مستوى من الوعي"معا".

3- القبول بدرجة من المخاطرة.

4- حركية مناسبة ذات توجه جدلى ضام.

5- قدرة على التناوب بين الكمون والبسط.

تختلف هذه الشروط والفاعليات عن تلك التى يجب توافرها لتحقيق حرية تبادل وتسويق والحفاظ على الناتج الإبداعى (والتى تكاد تحتكر الحديث عن الحرية والإبداع). يتحرك الناتج الإبداعى بحرية بشروط أخرى، وفاعليات مختلفة نكتفى بتحديد عناوينها (للتمييز) فيما يلي:

1- أبجدية كافية وقادرة (قدر كاف من الموضوعات، المعلومات، المعارف، الخبرات).

2- محيط من السماح ممتد من العملية الإبداعية حتى إعلان ناتجها.

3- أداة (أو أدوات) للأداء (التعبير/ التفعيل/ الإخراج، إلخ...).

4- فرص مناسبة لاستعمال هذه الأدوات، وفرص لإعلان ناتج استعمالها.

5- إمكانية توصيلها لأصحابها، وإمكانية الحوار حولها لمراجعتها (وخاصة بمايسمى "النقد").

ضرورة التمييز، حتى الفصل، بين حرية وحرية

أهمية هذا الفصل بين الحرية الضرورية لتحريك عملية الإبداع، والحرية اللازمة لتسويق ناتجه ليست أهمية نظرية. إن الاهتمام بالأخيرة دون الأولى (أو أكثر من الأولى) يمكن أن يترتب عليه مضاعفات كثيرة، حتى لو بدت كأنها إنجازات بشكل أو بآخر. نورد بعض هذه المضاعفات -كأمثلة- فيما يلي:

1- لو أن حرية التعبير أصبحت كاملة (مائة بالمائة، وهذا مستحيل حتى فى أكثر الدول زعما بإطلاق الحريات) مع قصور فى توفير حرية العملية الإبداعية، فإن الاحتمال الأغلب هو الحصول على قدر هائل من الأصوات والكتابات من أقصى أطراف الاستقطاب دون إضافة حقيقية تدل على معنى الحرية التى تخدم الإبداع، وترسم الطريق إلى "الآتي".

قد تتناسب حرية التسويق والسماح بإعلان ناتج الإبداع تناسبا عكسيا مع عمق حركية (حرية) عملية الإبداع ذاتها. ذلك أن هذه الأخيرة تتعمق أكثر فأكثر وهى تحاول اختراق الحواجز الخارجية (بعد، ومع الحواجز الداخلية) بشكل أو بآخر. فإن لم توجد تلك الحواجز والمحظورات، فقد تنساب خيالات كثيرة، وتنطلق شطحات طافية، تثبت أغلبها أنها "كنظام" الإبداع، وليست إبداعا.

2- على الرغم من احتمال السماح غير المحدود بحرية التعبير (والنشر) أحيانا (من الناحية الرسمية، أو القانونية، أو الحقوق المعلنة) إلا أن ذلك لا يمنع من قيام مؤسسات أخرى بتشويه هذه المساحة من الحرية، أو توجيهها الوجهة التى تريدها دون إدراك كامل من جانب المبدع يحميه من مغبة ذلك. بل إنه فى كثير من الأحيان تقوم هذه المؤسسات باختلاق قضايا زائفة، أو فرعية ، تغرى المبدع بخوضها، وهو يتصور أنه يصارع من أجل حريته، فى حين أنه لا يخدم إلا تشويهها، وتزييفها. (تذكر مثلا سماح السينما الأمريكية بشجب حرب فيتنام لتفريغ طاقة معارضيها، فتستمر الحرب أطول).

3 - من ذلك أيضا (وبرغم أنه يندرج تحت التحذير السالف الذكر إلا أنه يحتاج فقرة مستقلة) ما يجرى قصدا أو مصادفة من تصنيع غرائز مانعة للحرية مسايرة لما يغلب عند القطيع البشرى فى وقت بذاته. ثم العمل على تقديسها تسليما، حتى أن هذه الغرائز المانعة للحرية قد تحمل أسماء تغرى بأنها تنتمى إلى ما هو حرية وتحرر (مثل منظومة العقل، ومنظومة العلم، ومنظومة الديمقراطية ومنظومة احتمار تفسير الدين، ومنظومة الطب التقليدي، فى حدود الشائع عن كل(2)

أخلص من كل ذلك إلى القول بأن التركيز على حرية الخارج هذه قد يترتب عليها الانسياق وراء الاكتفاء بالتركيز على المتاح من الحرية، دون اختبار يطمئن إن كان هذا المستوى هو حقيقة يمثل الحرية، أم أنه المستوى الأسطح الخالى من المغامرة الحقيقية، المكتفى بفرحة زعم الانطلاق، دون صراع المعيقات وقفز الحواجز اللازمين لجوهر الإبداع.

إن الاقتصار على الحديث عن حرية تسويق أو إعلان الناتج الإبداعي، وبالتالى قصر مفهوم الرقابة على المؤسسات الرسمية والسلطوية الخارجية هو اختزال لقضية الحرية وعلاقتها بالإبداع.

الرقابة الداخلية أخطر:

توجد رقابة داخلنا، هى الأخطر والأهم، وهى تقوم بتحجيم حركية العملية الإبداعية، بشكل أخفى وأخطر. وهذا هو ما يهمنى توضيحه تحديدا فى هذه المداخلة من خلال النظر ببعض التفصيل للفاعليات والشروط الواجب توافرها لعملية الإبداع، ثم الإشارة إلى ما يحول دون توافرها، مما اخترت تسميته بـــ "الرقابة الداخلية".

حتى نتعرف بالقدر المتاح على ما هو رقابة داخلية، سوف نحاول تناول شروط حركية (حرية) العملية الإبداعية الواحد تلو الآخر.

أولا: مساحة كافية لاستيعاب حركية الوعي

الحديث عن المساحة التى يتحرك فى رحابها الوعى البشري، غير الحديث عن عمق الوعى أو حركيته، برغم التداخل الضروري. مجرد ذكر لفظ "مساحة" فى هذا المقام يحتاج وقفة، المساحة ليست سعة مكان بقدر ما هى عدد من الوحدات (المشتبكية، والجزيئية) مضروب فى عدد من احتمالات التربيطات. (تصل إلى البلايين فى حالة الإنسان، إذا اكتفينا بمشتبكات دماغه فحسب).

يولد الطفل (البشري) وهو يحمل تاريخا من خبرات كل الأحياء التى أفرزته، كما أنه يحمل تركيبا معرفيا تشريحيا ووظيفيا شديد الكثافة والكفاءة (فى الدماغ خاصة، دون استبعاد سائر الجسد). يمثل هذا وذاك أعظم وأضخم ما عرف من تركيبات بيولوجية مشتبكية وجزيئية، تتضاعف مساحتها مع تضاعف احتمالات أنواع تشابكها، والتفاعلات فيما بينها، إن الطبيعة لم تبخل على الكائن البشرى منذ ولادته بهذه المساحة البيولوجية المعرفية المترامية الرحبة.

خيال الأطفال الحر هو خير دليل على مدى اتساع هذه المساحة البدئية، لكن هذا الخيال الحر ليس مرادفا للإبداع بحال. بل إن استمرار هذا النوع من الخيال بطلاقة غير محدودة فى كل هذه المساحة يعتبر ضد الإبداع، بل ضد النماء، والتعلم، والتحصيل، والتفكير"الحل مشاكلي" أيضا.

لظروف تنظيمية مبرمجة، تضفرا مع ظروف خارجية متاحة، يتحدد الجزء من هذه المساحة المسموح فيه بالحركة بالغرض من التحرك فى لحظة بذاتها.

إن التنشئة الأساسية هى التى تسمح (أو تمنع) أن يحافظ الطفل (فالناضج) على أكبر قدر من هذه المساحة، وفى نفس الوقت هى التى يمكن أن تحميه من التوه فيها إلى غير رجعة.

الخيال الطليق (الطفلي، والجنونى أيضا) يتميز برحابة مثل هذه المساحة حتى الإعاقة، ما لم يتم التنظيم المناسب.

هذا النوع من اتساع المساحة ليس إبداعا فى ذاته، ولا هو ضرورى هكذا للإبداع، بل لعله ضد الإبداع فى نهاية النهاية، مع أن رحابة المساحة هى شرط إطلاق رحابة العملية الإبداعية.

يتوقف الحفاظ على المساحة المناسبة لتحقيق أى غرض حياتى بما فى ذلك الإبداع، على نوع التربية (والتعليم)، وكذلك على مدى حرية المربى (/المعلم)، وليس فقط موسوعيته أو مهارته أو حتى عواطفه.

إن ما نسميه هنا حرية المربى هى نوع وجود قادر سمح صارم فى آن. هى أقرب إلى الحرية التى تلزم فى العملية الإبداعية منها إلى التحرر فى التعبير والنشر، بمعنى أنها تشمل شجاعة التجريب ، ونشاط تحرك مستويات الوعى فى المساحة الممتدة، دون مبالغة فى السماح، ولا ملاحقة بالوصاية. إذا لم يتوفر ذلك، فإن الناتج السلبى هو عملية تضييق الخناق، لتحديد المساحة أضيق فأضيق، حتى يموت الإبداع قبل أن يولد.

القهر البدئى الذى يحرم الكائن البشرى من هذا الثراء الجاهز للحركة والإبداع، يبدأ بتحجيم المساحة أكثر من اللازم دون مبرر كاف، عن طريق تعليم كمى حشري، وسلطات قامعة. ثم تستمر الرقابة الداخلية التى تكونت نتيجة هذا وذاك فى كف أى محاولة توسيع للمساحة كما خلقها الحق سبحانه وتعالي، حتى تضيق إلى ما يعيق تشكيل أو تخليق أى جديد.

هذه هى أولى خطوات الرقابة الداخلية ، وهى رقابة وقائية من "مخاطرة الإبداع"، إن صح التعبير.

ثانيا: تنشيط لأكثر من مستوى من "الوعي" معا

لا جدوى من رحابة المساحة (بالمعنى السابق) لتسع حركية مستويات الوعى مهما بلغت، إلا إذا تم التنسيق المناسب للتحرك فيها. الحركة فى المساحة المتاحة لا تسير عرضا فى رحابة امتدادها فحسب، وإنما هى تغوص طولا إلى أغوارها الحاملة للتاريخ (الفردي، والنوعي)، أعنى إلى مستويات الوعى البشرى المرتبة هيراركيا حاملة تاريخ الحياة برمتها، مستعيدة تاريخ النمو الفردى فى نفس الوقت.

حين نتحدث عن مستويات الوعى لا نقصد ما يسمى الشعور فى مقابل اللاشعور، ولا حتى اللاشعور الجمعي. الإنسان منتظم دماغه خاصة، ووجوده عامة، في

مستويات لها أسماء مختلفة حسب المدرسة النفسية أو العصبية أو الفلسفية التركيبية التى تصفها. هذه المستويات يمكن أن ينظر إليها باعتبارها حالات ذات (ذوات) متنوعة،

كما يمكن أن ينظر إليها باعتبارها منظومات دالة على مرحلة بذاتها من مراحل التطور الحيوي، وأيضا النمو الفردي. كل منظومة (مستوي) من هذه المستويات هى تركيبة كيانية متكاملة قائمة بذاتها، لكنها منتظمة -هيراركيا- مع سائر المنظومات الأخري، الأقدم والأحدث.

فى لحظة بذاتها يقوم أحد مستويات الوعى بالتفوق والقيادة (وعى اليقظة الظاهر هو المتقدم البادى عادة). فى حين تكمن مستويات الوعى الأخرى حتى يتغير الموقف والموقع والوقت (أثناء النوم مثلا) فتنتقل القيادة إلى مستوى آخر، وهكذا.

هذا التبادل يدل على سلامة وكفاءة ومرونة التركيب البشري، وهو يتيح فرصة للتنظيم والأداء الراتب للعمل العادى والتكيف معا.

فى حالة الإبداع، تزيد الكفاءة والمرونة حتى يتم السماح بتنشيط أكثر من مستوى معا فى نفس الوقت، هذا ما يحدث أيضا فى حالة الجنون (أو بعض الجنون على الأقل)، لكن بصورة سلبية، وناتج سلبي.

إن طريقة تنشئة معينة هى التى تسمح بهذا التنشيط الإيجابى معا، تنشئة ليس فيها تقسيم حاسم نهائى للأسود والأبيض (الحسن والسيء، الصواب والخطأ)، تنشئة تحدد خطوطا حمراء متحركة، وليس مساحات حمراء ثابتة ومحظور الاقتراب منها أصلا، ودائما.

أيضا: التربية المهيئة لطلاقة الإبداع هى التى تسمح بطرح الأسئلة بنفس القدر، وأحيانا أكثر، من ذلك القدر الذى تعطى به إجابات حاسمة، وهى التربية التى تحترم الجهل والمجهول، بما فى ذلك الأحلام والشطح الغامض.

كل ذلك هو الذى يعطى ذلك القدر من الحرية اللازمة لتحقيق هذا المطلب الثانى لحرية العملية الإبداعية.

الرقيب هنا : هو الحاسم الثابت المطلق من الإجابات الجاهزة، ومن المسلمات، ومن التنظيمات الجامدة، ومن الأخلاق المغلقة المعطاة ، ومن التفسيرات المنتهية.

حين نستسلم تماما لكل محتويات هذا المعجم المبرمج المتجمد، لا يسمح إلا لمستوى واحد من الوعى أن يسود أثناء اليقظة، وبالتالى نفتقر إلى شرط الحرية الداخلية السامحة بالإبداع.

إن الرقيب هنا يتكون بشكل منتظم وجاثم وصلد منذ البداية، بحيث يصل التسليم له إلى داخل الداخل، فهو القهر الذاتى الممتد. يترتب على ذلك أن يصبح اختراقه مصاحب بمخاطر غير مأمونة تماما.

ثالثا: القبول بدرجة من المخاطرة

لا يوجد إبداع بدون مخاطرة، حتى فى الظروف التى وفرت المساحة الرحبة، والسماح لأكثر من مستوى من الوعى معا، حتى فى تلك الظروف ، فإن الإبداع الحقيقى لا يتم إلا من خلال درجة ما من المخاطرة. تأتى المخاطرة من مصدرين أساسيين:

الأول: إن عملية الإبداع هى خطوة إلى مجهول ما. كثيرا ما تبدأ العملية فى اتجاه بذاته، لتحقيق فكرة ما، أو للكشف عن منطقة ما، لكن المبدع الحقيقى عادة ما لا يواصل المسير فى نفس الاتجاه الذى بدأ به ليحقق ما أراد. إنه عرضة دائما (ما دامت المساحة رحبة، و"الوعى معا" وارد) أن يجد نفسه فى طريق لم يقصده، سائرا إلى مآل لا يعرفه.

الثانى : لا يقتصر الخطر على اختلاف المسار عن المخطط المبدئي، ولا على انتهاء المآل إلى هدف جديد غريب لم يقصد إليه ابتداء، وإنما يتمثل أكثر فى احتمال "إجهاض العملية" الإبداعية بحيث لا تصل إلى أى غاية أو تنجح فى أى توليف. هذا الإجهاض، فضلا عما يحمل من إحباط، هو خطوة خطيرة فى ذاتها، إذ منها قد يبدأ مزيد من التفكيك والتعدد غير المتبادل أو المتجادل، الذى قد ينتهى إلى مآلات سلبية ليس أبسطها ما يسمى الجنون(2).

الإبداع إذن هو مخاطرة نحو مجهول مرعب، وهو فى نفس الوقت منزلق إلى جنون محتمل. لا يوجد مبدع - لحظة الإبداع- مهما تماسكت شخصيته، وترسخت قواعده، إلا وهو يخاطر بما لا يعرف، بما فى ذلك احتمال خبرة الجنون، حتى ولو كان ذلك للحظات محدودة.

فى الإبداع الأصيل لا يوجد سقف للمخاطرة، حيث لا توجد قيم محظورة أصلا.

قد يأتى الخطر لاحقا حين تنتقل العملية الإبداعية إلى مستوى الناتج الإبداعى المعلن.

إن الأخذ بالمخاطرة فى مراحل العملية الإبداعية التى هى شديدة الخصوصية ليس له سقف. المخاطرة هنا تقتحم أى محظور من أى نوع مهما تقدس: دينيا، أو أيديولوجيا، أو علميا، أو عرفا، أو تقاليدا، أو محرمات، أو وعيا عاما، أو رأيا غالبا، أو ديمقراطية أو قانونا. المبدأ الأساسى فى هذا الموقف هو أن "كل شيء قابل للتناول، وكل مسلمة قابلة للمراجعة، وكل مقدس قابل للفحص والنقد".

لا يستطيع المبدع عادة، مهما بلغت قدرات وتجارب إبداعه، أن يعيش هذه المرحلة من المخاطرة ببصيرته الكاملة اليقظة. لكنه أيضا - لكى يكون مبدعا - لا مفر من أن يعيشها فى مستوى ما من مستويات وعيه، رضى أم لم يرض. البعض يعى احتمالات المخاطرة بشكل أو بآخر فيتحمل مسئوليتها باختيار نسبي، والبعض يسمح بها (حتى لنفسه) من وراء ظهره.

الـذى يـعيـهـا قـد يـتمـادى فـيـهـا حتى يخرج مـنهـا لـنفسه بمـا تـيســـر، ثم يـعـاود الـتنظيم والانـتـقـاء حتى يخرج مما خرج بـه لـنفسه بمـا يمكن أن يـصل إلى الـنـاس فى إطـار المتـاح (الحريـة الأخري).

هـاتـين عمليـتين مـكمــلـتين لـبعضهمـا الـبعض، لـكن الحذر كل الحذر يـلـزمـنـا أن نـتـذكـر أنـه إذا طغى الاهتمـام بـالـعمليـة الـثـانيـة، (الـنقـلـة إلى نـاتج إبـداعي) بـوعى أو بـدون وعي، على حساب الـعمليـة الأولى (الـعمليـة الإبـداعيـة ذاتهـا)، فـلا يخرج مـنهـا إلا مـا هـو لـيس إبـداعـا أصلا. (كمـا ألمحنـا).

عـادة مـا يحتـاج الأمـر إلى خطـوة إبـداعيـة تـوسطيـة تـقـوم بـالـتـولـيف بـين المخـاطـرة الأولى غير المحدودة، وبـين المـراجعـة الـتـالـيـة الـتى تحيل الـعمليـة الإبـداعيـة إلى نـاتج إبـداعى مـتـاح.

الـرقـيـب المترجم هـنـا هـو رقـيـب مـبـدع مشـارك بـشكل مـا.

مـثـل أى رحـالـة مـغـامـر (سفـارى مـثـلا) تـقـل المخـاطـرة مـع تـكـرار المحـاولات، وتـكـرار الـوصـول الآمـن إلى الهـدف بـشكـل أو بـآخر، لـكنهـا أبـدا لا تـنعدم.

إذا انـعدمت المخـاطـرة بـإطلاق، مـات الإبـداع، أو تـسطح على أحسن الـفـروض.

الـرقـيـب هـنـا أخطـر وأكـثـر تحفـزا.

فـقـد يـكـون رقـيـبـا جـاهـزا قـديمـا مـعيـنـا فى داخلـنـا مـنـذ الـولادة فـيمـا هـو جيـنـات ووراثـة،

وقـد يـكـون رقـيـبـا لحق بـنـا مـنـذ بـدايـة الـتنشئـة، وهـو يمسك بـيـده المـعجم الـقـديم الـثـابـت لـتحـديـد المسمـوح مـن الممنـوع،

وقـد يـكـون رقـيـبـا مـن واقـع سلطـة ديـنـيـة، (ولـيـس الـديـن فى ذاتـه). سلطـة تمـادت فى الـتفسير والـتحجيم والـوصـايـة ، بمـا يـعـوق لا بمـا يخلـق.

وقـد يـكـون رقـيـبـا مـعيـنـا (داخلـيـا أيـضـا، ولـيـس فـقـط فى الخـارج) مـن قـبـل أيـديـولجيـة شـاعت وتمـادت، حتى أصبحت مـن المسلمـات، بـاعتبـارهـا الـنهـايـة الـقصوي. (مـثـل المـاركسيـة حول مـنتصف الـقـرن الـعشريـن، والـعولمـة المـأمـركـة بـديمقـراطيـة مـوصى عـلـيـهـا حـالا).

وقـد يـكـون رقـيـبـا مـؤلـفـا مـن كـل ذلـك.

المصيـبـة فى شـأن كـل هـؤلاء الـرقـبـاء هـى أنـنـا نحن الـذى نـعيـنـهم فى الـداخـل، بـل إنـنـا كـثيرا مـا نحتفـل بمـراسم تـسلــــمـهم صولجـان الـرقـابـة. المصيـبـة الأخرى هـى أنـنـا – لـذلـك، ولـغير ذلـك- لا نحـاول مـقـاومـة هـؤلاء الـرقـبـاء أو مـواجهـتـهم، نـاهيـك عـن مخـالـفـتـهم، أو تحجيـمـهم (الـلـهـم إلا فى طفـرة إبـداعيـة غير مـأمـونـة الـعـواقـب)

الـرقـابـة فى هـذا المسـتـوى الـداخلـى أشـد وأخطـر.

بل إن رقابة قد تعين من قبل المنظومة التى تسمى "الحرية" حين تصبح قيمة مقدسة، لا حركية نابضة. نفترض مثلا أن مبدعا خطر له أثناء طلاقة إبداعه أن يقر بمشروعية بعض الحواجز المدخلة فى كل أكبر لا يعرفه، يبدو مثل هذا المبدع أنه قد تجاوز "تقديس الحرية"، فلا يستبعد أن يقفز إليه رقيب من داخله يمنعه من التمادى فى هذا السبيل خوفا من الحكم عليه بالهرطقة فى حق الإله المسمى "الحرية". هنا يصبح الرقيب المعين من قبل الحرية هو نفسه الحائل دون ممارسة حقيقة وحركية الحرية، بما يترتب عليه فساد أصالة العملية الإبداعية.

رابعا: حركية مناسبة ذات توجه جدلى ضام

بعد الطمأنينة إلى المساحة، والسماح بالتنشيط لمستويات الوعى معا، والأخذ بالمخاطرة بكل أبعادها، لا يكون الإبداع إبداعا إلا إذا اتصف بحركية نشطة، لا تلتزم باتجاه بذاته، اللهم إلا المثابرة حتى تمام التوجه (وليس تحقيق هدف محدد مسبقا).

إن مجرد الحركة قد تمثل رعبا يفسر بما جاء عن المخاطرة فى الفقرة السابقة، يكون الأمر أكثر صدقا وأخطر إرعابا حين تكون الحركة طليقة نسبيا (لا كليا).

لا إبداع بدون حركة، ولكن ليست كل حركة إبداعا. ثمة حركة فى المحل، وثمة حركة مشتته، وثمة حركة زائفة، وثمة حركة ظاهرية فحسب.

الحركة التى تجعل التنشيط فى المساحة "معا" إبداعا هى حركة ضامة جدلية. إنها حركة تحتوى الأضداد دون تسوية، وتلملم الشتات دون محاولة الرجوع إلى التنظيم القديم مهما بدا أكثر أمـنا. فرط الحركة قد يكون - فى نهاية النهاية - ضد الإبداع، وضبط السرعة ليس عملية سهلة، أو جاهزة، أو ممكنة طول الوقت.

الرقيب على هذا المستوى هو قريب من الرقيب المختص بالتحذير من المخاطرة (الفقرة السابقة)، ذلك أنه عادة ما يبالغ فى مخاطر الحركة (سواء من الإفراط فيها، أو من العجز عن ضبط توجهاتها). هذا الرقيب يجد من حركية الإبداع ملزما بقواعد "تهدئ اللعب" كما يقولون. (المقصود هنا بالإلزام هو الإلزام الداخلى المسمى فى العادة "الالتزام".)

إذا كنا نفترض ضرورة ضبط جرعة الحركة خصوصا فى مرحلة الانتقال من العملية الإبداعية إلى الناتج الإبداعي، فإن مثل هذا الضبط أو الالتزام يصبح رقيبا خطيرا فى المرحلة السابقة لو أنه تدخل أكثر مما ينبغى فى نشاط العملية الإبداعية الأولية.

إن كثيرا من النقلات الجذرية من مرحلة إلى مرحلة من مراحل وأطوار أنواع الإبداع المختلفة، تـحدث ما يشبه

الصدمة نتيجة لتجاوز حركتها "السرعة المقررة". (مثلا: النقلة من الشعر العمودى إلى شعر التفعيلة، ومن شعر التفعيلة إلى قصيدة النثر، وهكذا). الرقيب الداخلى هنا هو بمثابة كاميرا الرادار التى تحذر قائدى السيارات على الطرق السريعة بأن "السرعة مراقبة بالرادار". أحيانا يصل الأمر إلى أن تنقلب الرقابة على الحركة إلى نوع من الضوء الأحمر الذى لا يتغير وكأن الجندى الرقيب قد أضاءه ثم نسيه.

خامسا: القدرة على التناوب بين الكمون والبسط

العملية الإبداعية ليست محدودة بوقت بذاته، إن لم تتم فيه ألغيت لتأخرها عن الموعد مثلا.

قد يخضع الناتج الإبداعى لاحتمال تحديد زمن بذاته لإنجاز ما اتفق عليه فى عقد ما، أو التزام ما، أما العملية الإبداعية نفسها فهى مطلقة متراوحة فى الظهور والاختفاء، بين الكمون والإعلان.

لكى تكون الحرية التى نعنيها هنا متوافرة فعلا للعملية الإبداعية دون ربط مباشر بما هو إنجاز إبداعى محدد، علينا أن نحترم الكمون بقدر ما نحترم الظهور، كما أنه علينا ألا نطمئن طويلا إلى كمون طال، حتى لا ينقلب إلى نشاط توقف. التراوح بين الكمون والنشاط كصفة لازمة لحركية الإبداع ينتمى إلى فرض يربط بين "الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع"(3).

الكمون جزء لا يتجزأ من تخليق الإبداع إذ يسمح بقدر من حرية التخمر والتوليف الداخلي، مثلما يهيئ للبسط فى طور آخر. لكى يتحقق إبداع لا يمكن تفضيل طور عن طور حيث يكمل أحدهما الآخر. إن من لا يعطى لحركية العملية الإبداعية حقها فى الكمون إنما يفرض عليها قهرا قد يشوهها أو يسطحها بشكل أو بآخر، كذلك إذا اقتصرت العملية الإبداعية على مرحلة الكمون فهى إبداع يتباطأ حتى يصمت، أو على أحسن الفروض إبداع مؤجل إلى أجل غير مسمي.

الرقيب هنا هو ذلك المفهوم التسلسلى الذى قد يترتب على تنشئة تعلى من قيمتى "التربيط الخطي"، و"الثبات على المبدأ". يقوم هذا الرقيب بالتخويف من التغير الذى يصاحب السماح بالوعى بنوبات إيقاع الكمون/البسط باعتبار أن الثابت الخطى آمن وأضمن.

تجليات العملية الإبداعية:

إن فصل العملية الإبداعية عن ناتجها المعلن، فى شكل معروف من التشكيل المحكى أو المسموع أو المرئي، له فضل التعرف على الطبيعة البشرية فى جوهرها المبدع بذاته. إنه يؤكد موقفا أساسيا لصاحب هذه المداخلة من حيث أن:

"كل إنسان هو مبدع بما هو إنسان، حتى لو لم ينتج ناتجا يسمى إبداعا أصلا".

العملية الإبداعية، بعد فصلها عن الناتج الإبداعى الشائع، تحتاج إلى مزيد من التعرف فى تجلياتها الأخري. إن هذا قد يساعد على قبول هذا الفصل بينها وبين ناتجها الشائع، بما يتيح لنا قبول التفرقة لطبيعة ما يسمى الحرية كما وردت فى هذه المداخلة.

دعونا نتعرف أكثر على بعض نتائج العملية الإبداعية بعيدا عما يسمى الناتج الإبداعى المسجل تشكيلا. إن الإبداع يكون إبداعا حتى لو لم تصحبه إنجازات محددة معلنة، جديدة أو مضافة. صحيح أنه قد يكون إبداعا منقوصا أو قصير العمر (مثل إبداعات خيال الأطفال) لكنه يتصف بأغلب مقومات الإبداع.

إن مسار النمو الذاتى ليس إلا إعادة تشكيل المادة الجينية بما أتيح لها من مناهج تربوية سلوكية تسمح بهذا التشكيل المتجادل طول الوقت مع ما يصلها من معلومات وخبرات من خارجها (المحيط).

لا تحتاج عملية الإبداع - حتى نعترف بها-إلى أن نحذق أدوات محددة للتعبير عنها. قد تكون أدوات التعبير ليست كافية لإتاحة الفرصة للتعبير الإبداعى المناسب، لكن يظل الإبداع إبداعا.

إن حذق استعمال الأداة قد يسمح بتنمية مهارة ما، لكن المهارة -فى ذاتها- مهما بلغ إتقان ناتجها، ليست مرادفة للإبداع. إنك حين لا تمتلك الأداة قد تستطيع أن تبدع بدونها ولكن ذلك عادة لا يسمى إبداعا. أنت تحلم، وتتغير، وتتذوق الأكل بشكل آخر، فى حين أنك لا تلعب الموسيقى أو تكتب الشعر أو الرواية ، ولكنك مبدع بالضرورة. من ذا الذى يستطيع أن يمنعنى أن أشاهد قرص الشمس مختلفا فى كل مرة بحيث أعتبرها شمسا جديدة تماما كل صباح، إن معايشتى لكل شروق باعتباره خبرة جديدة تكفى لدخولى نادى المبدعين حتى لو عجزت عن صياغة ذلك فى قصيدة معلنة.

إبداع الذات فى خبرات التصوف فى رحاب الحق سبحانه، سعيا إلى وجه العدل تعالي، كدحا للقاء المحيط احتواء، هو نوع من العملية الإبداعية الذاتية الخلاقة. الخلاصة :

إن الاقتصار على التركيز على أن الحرية فيما يخص العمل الإبداعى هى ما يتصل بحرية التعبير أو حرية النشر هو تجاوز لمفهوم أعمق للحرية يشمل الحركة والمرونة والجدل والمخاطرة والمسئولية جميعا.

إن الحرية الضرورية لحيوية العملية الإبداعية غير الحرية اللازمة لإعلان الناتج الإبداعي.

إن حرية العملية الإبداعية هى ممارسة جدلية مرنة، لها مواصفات خاصة، ليس من بينها التقديس أو اللامحدودية.

ثم خطر يمكن أن يترتب على هذا التركيز على هذا المفهوم للحرية الخاصة بعملية الإبداع أكثر من العمل على ضمان

حرية إعلان ناتجها، ذلك الخطر هو أن يختزل مفهوم الحرية إلى عملية ذاتية داخلية أكثر منها ممارسة طليقة معلنة تسمح بالحوار والنقد. لا توجد حرية فى السر بصفة دائمة. ليس فقط لأن الحرية هى موقف مواجهى بالضرورة، ولكن لاحتمال الانخداع بما لا يختبر. إن سرية الحرية تجعلها بعيدة عن الاختبار بما يعرضها أن تفقد فى النهاية فرصة التحقق والمراجعة.

أيضا: لا توجد حرية فى فراغ. الحرية لا تتواجد إلا فى مواجهة آخر حقيقي، والآخر لا يتواجد إلا إذا حل فى وعينا كيانا منفصلا عنا، مختلفا فعلا، وليس ادعاء. يحل فى وعينا لنحسن التعرف عليه منفصلا، لا لنسقطه إلى الخارج بديلا عنه. لا توجد حرية بشرية إلا فى مواجهة "آخر". سواء بالحوار، أم بالصراع، بالاتفاق أم بالاختلاف.

إن الزعم بأن حريتك تنتهى عند بداية حرية الآخرين هو زعم أقرب إلى التسوية التى تحدد منطقة محايدة بين الطرفين، هو زعم يعلن فض الاشتباك أو هدنة دائمة متجددة، وهذا أبعد ما يكون عن مناخ تنشيط الحرية واختبارها بالحوار الخلاق. فض الاشتباك هذا يلغى حركية الحرية من أساسها. إن حريتك لا تبدأ إلا وهى تتصارع جدلا مع حرية الآخر. هذا النوع من الصراع، ليكون دليل حرية، لا ينتهى بقاتل ومقتول. إنه ينتهى بتخليق آخرين مختلفين إبداعا نتيجة إثراء كل منهما للآخر باحتواء إبداعى متبادل، يتأكد أكثر وهما مفترقان. الحرية التى تتم بالحذف، أو بالانسحاب، أو بالتسوية الماسخة، هى حرية منقوصة أو معكوسة.

إنه فى مجال الحديث عن الحرية لا توجد محاذير مطلقة، ولا مقدسات ثابتة. مع أن الحرية لا تزدهر إلا فى مواجهة المحاذير والسدود، فى الداخل والخارج، تواجهها لتخترقها فتحتويها، هى لا تستسلم لها، ولا تنسحب أمامها، وهى حتى لا تحطمها فتخف وتطفو هلامية القوام على أنقاضها. إن المحاذير والسدود هى التى تجعل لحركية الحرية زخما متفجرا خلاقا.

فى مجال الإبداع، تبدأ الحرية من الداخل للخارج، كما تتدعم من الخارج للداخل باستمرار. نفس التبادل بين الداخل والخارج تتنامى فيه كل من القيود والقهر باضطراد

الخطر الأكبر يتمثل فى احتمال أن ينتقل قهر الخارج المعلن الذى يمكن رفضه واختراقه وتجاوزه. إلى قهر الداخل الخفى المستسلم المدعى للحرية. إن الرقيب الداخلى قد يكون أعمى وأقسى من كل الرقباء الخارجيين.

أخيرا، فإن الحرية ليست قيمة إيجابية فى ذاتها بشكل مطلق، فحرية الجنون، إذا لم نلحق بها لنحول مسارها إلى مشروع إبداع، قد تكون تدميرية للذات أو للآخرين، وحرية الطفل لا تضمن أى بناء قادر على الاستمرار بما هو.

كل هذه المحاذير تنبه إلى أن حرية العملية الإبداعية، هى التمهيد الضرورى (وليس البديل) لممارسة الحرية إبداعا بما يميز الكائن البشرى بحضور وعيه "معا" فى جدل مع "الآخر" أبدا.

ثم تنويه أخير لا مجال لتفصيله هنا يقول : إن الحديث عن حرية الإبداع (عملية، وناتجا) غير الحديث عن حرية الشخص الذى أفرز إبداعا ما (لا أصفه دائما بالمبدع طول الوقت). إن حركية الإبداع تتكون وتنشط وتتحرك وتنجز عبر ذات بشرية ما، حتى لو كان صاحبها يتصف فى الحياة العادية بصفات هى أبعد ما تكون عن الحرية: حركية وسماحا وجدلا ومسئولية وأخلاقا جميعا.

لكن هذا حديث آخر.